خطبة صلاة الجمعة 25/ 1/ 2019 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(ماذا أفعل ليتعافى بلدي وينهض؟)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: 13].

وقال سبحانه: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس:٨٣].

قال ابن كثير: هم الشباب.

أخرج الحاكم والبيهقي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك**».

أيها الإخوة:

نحن في الخطبة العشرين من سلسلة (هموم الشباب)، تحدثتْ الخطب السابقة: لماذا هذه السلسلة، وكيف أترك المعصية، كيف أرضي أبوي، كيف أجد عملاً مناسباً، كيف لي بالزواج، ماذا أقرأ لأفهم ديني، وكيف أجمع بين الدنيا والآخرة، وكيف أجمع بين الهزل والجِد، وكيف أختار تخصصي الجامعي، وكيف يلين قلبي، وكيف أخدم بلدي، وكيف أسيطر على الغضب، وكيف أنجو من الفتن، وكيف أكون محبوباً، وكيف أنظم وقتي، وكيف أكتشف مواهبي وأنميها، وكيف أصير داعية إلى الإسلام، وكيف أختار صاحبي، ولم لا يستجيب الله دعائي.

عنوان خطبة اليوم: **ماذا أفعل ليتعافى بلدي وينهض؟**

أيها الإخوة:

كثيراً ما تلتقي شاباً صالحاً مهمومَ الفؤاد لأجل أمته ومشغولَ الفكر بكيف نهضتها.

ومراراً ما يسأل شابٌ ماذا يفعل ليتعافى بلدُه، وما واجبه لينهض به.

ويقرأ أحدُهم تقاريرَ التنمية فيجد بلده متأخراً، وتقاريرَ صناديق المال فيعلمُ بالديون الكبيرة على بلده، وتقاريرَ التعليم فلا يجد لبلده فيها اسماً، فيصيبه لذلك الهم ويسأل: هل من سبيل إلى التعافي؟

ولأن النفوسَ الكبيرة همومُها كبار، ولأن أصحاب العزائم يهتمون بالعظائم، أعددتُ هذ الخطبة لأجيبَ كلَّ شابٍ كبيرِ القدر شريفِ المقصد، يحب بلده ويغار عليها ويسأل: ماذا أفعل ليتعافى بلدي وينهض؟ وما كتبت في الجواب على ذا السؤال قابل للزيادة أو التعديل ممن يستمع لهذه الخطبة أو سيستمع لها لاحقاً.

أقول مستعيناً بالله تعالى: إذا أردتَ أن يتعافى بلدُك وينهض فعليك بأربعة أمور:

لا تيأس، واعلم، واعمل صالحاً، وأدم الضراعة والدعاء. وإليك بيانَها:

أولاً: **لا تيأس:**

لعلَّ امرؤاً يطّلع على الأرقام القاسية التي تعرض عن بلده بين الحين والآخر عن دخل الفرد المنخفض، وعن الدمار الذي لحق بالبلد، وعن الفقر والأمية والتردي الأخلاقي والفساد؛ فيصاب من ذلك بوهنِ العزيمة، وفتورِ الهمّة، وشيءٍ من الإحباط، ولكن عليه أن يعلم أنّ المخاض عندما يشتدّ؛ يُخْرِجُ وليداً جديداً، وأنّ الليل عندما يسودّ يُبَشِّرُ بفجر قادم، وأن الحَبْلَ عندما تزداد فيه قوة الشدّ تُؤْذِنُ بانقطاعه، وأن مع العسر يسراً.

لم يكن للعرب قبل الإسلام شأنٌ على خارطة العالم، إذْ كانوا يعيشون جاهلية جهلاء، يقتل القويُّ الضعيفَ، ويستعبد الغنيُّ الفقيرَّ، ويبطش القادرُ بالعاجز، يشربون الخمر، ويستَرِقُّون البشر، ويرتكبون الفواحش، ويقطعون الأرحام، ويعيشون الأمية، ويأكلون الميتة، ويشربون الدم؛ فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ونشر فيهم إسلام العلم والعمل؛ فصاروا خير أمة أُخرِجتْ للناس، يرحم القويُّ الضعيفَ، ويساعد الغنيُّ الفقيرَ، ويعين القادرُ العاجزَ، يحرّمون الخمر، ويحترمون البشر، ويجتنبون

الفواحش، ويصلون الأرحام، ويتقرّبون إلى الله بالعلم، ويأكلون ويشربون ما لذّ وطاب من الحلال ولا يسرفون.

لقد حدث ذلك خلال ثلاثة وعشرين عاماً؛ هي سنوات الدعوة المباركة، فلا تيأس!

كانت ألمانيا عندما استسلمت للحلفاء عام 1945 حطامَ دولةٍ، وكان الشعب في حالة احباط وانهيار، (5 مليون) معتقل في سيبريا، (10 مليون) قتيل، منازلٌ بل مدنٌ كاملة سُوّيتْ بالأرض، سرقتْ قواتُ الحلفاء المصانعَ والآلات، ودمرتْ البنيةَ التحتيةَ بشكلٍ كامل، ولم يبقَ من الشعب على الغالب إلا النساء والأطفال والطاعنون في السن، بدأتْ فكرةُ النهوض من القاع على يد النساء وكبار السن بجمعِ الأنقاض لإعادة بناء البيوت! وجمعِ بقايا الأوراق والكتب لفتح المدارس! كتبوا على بقايا الجدران المحطمة شعارات تبُثُّ الأملَ وتحثُّ على العمل: (لا تنتظر حقك) (افعل ما تستطيع) (ازرع الأمل قبل القمح)، وبعد بناءِ البيوت والمدارس بدأوا ببناء المصانع، وكتبوا قِيمَ العمل الجدية والأمل، ثم ظهرتْ رؤوس الأموال ورجال الأعمال، وتكفّل كلُّ رجلِ أعمالٍ بخمسين شاباً يدرّبهم ويعلمهم، وعندما جاء العام 1975م، كانت ألمانيا قد بُنيتْ من جديد، بل وأصبحت أقوى اقتصاد أوربي! وحازت على المركز الثالث على مستوى العالم في معدل التنمية، وعلى المركز الثاني في نسبة الصادرات، لقد حدث ذلك في ثلاثين عامًا فقط! فلا تيأس!

اليابان التي دمّرتها القنابلُ الذرية؛ تعافتْ ونهضتْ بسرعة مذهلة؛ لأنها آمنتْ بقيمة العمل، وهي الدولة التي تفتقر للموارد الطبيعية، ولا تعتمد إلا على الموارد البشرية، وقل مثل ذلك في الهند والصين وسينغافورة ماليزيا. فلا تيأس!

لَمَّا كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يحفر مع أصحابه الخندق، وقد جمعت قريش له الأحزاب وألَّبوا عليه النَّاس، وكان الخوف يملأ الجوف، وقد زُلزل النَّاس...، كان النَّبيُّ يعمل ويبشِّر أصحابه بأنَّه ستُفتَح لهم الشَّام، وتُفتَح لهم مصر، وتُفتَح لهم فارس!! [مسند أحمد]. فلا تيأس من روح الله ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: 87].

اِدفعْ بِصبرِكَ حادثَ الأيَّامِ ... وترجَّ لُطفَ الواحدِ العلَّامِ

لا تيأسنَّ وإنْ تضايقَ كَربُها ... ورماكَ رَيبُ صروفِها بِسِهامِ

فلَهُ تعالى بين ذلك فرْجَةٌ ... تخفى على الأبصارِ والأوهامِ

كمْ مِن نَجِيٍّ بين أطرافِ القَنَا ... وفريسةٍ سَلُمَتْ مِن الضّرغامِ

ثانياً: **اعلم:**

قرأتُ بحثاً عن نهضة ماليزيا، وكيف حقّقتْ قفزاتٍ نوعية بعد السقوط، أختصر لكم شيئاً مما فيه:

(«أيها الماليزي! ارفع رأسك؛ ناظراً إلى المستقبل» «مهاتير محمد»

عندما زار «مهاتير محمد» أميركا في عهد الرئيس «رونالد ريجان»، كان هذا الأخير ينظر لكل زائريه من العالم الثالث نظرة مليئة بالاستعلاء والغرور، اقترب من الضيف الماليزي، وقال له «انظر أمامك! ما تراه هما العمارتان الأطول في العالم»؛ يقصد «برجَيْ مركز التجارة العالمي»، فردّ عليه مهاتير: «سيدي الرئيس! أطمئنك أنه سيكون في ماليزيا قريباً ما هو أطول منهما!» وبالفعل احتفظ مهاتير بوعده، وفي عام 1998 كانت ماليزيا على موعد مع تدشين العمارتين الأطول في العالم المعروفتين ببرجَيْ «بتروناس»!

لقد استطاعت ماليزيا خلال ثلاثين عاماً تقريباً تحقيق نهضة شاملة في شتّى الجوانب، حيث كانت نسبة الأمية (47 %) قبل عام 1980م، وانخفضت إلى (1%) عام 2015م، وكانت نسبة البطالة (10%) وقلت إلى (2.5%) وكان متوسطُ دخلِ الفرد السنوي (350) دولار فصار (16000) دولار.

ومن أهم أسباب نهضتها على ما يراه الدارسون ستة أمور: التخطيط، ودعم الوحدة الوطنية، وإصلاح التعليم، والتسهيلات التجارية والصناعية، واعتماد قيادات ذات رؤية ونزاهة، والاستفادة من تجارب الآخرين.

يقول مهاتير محمد «التعليم هو سبب نجاح التجربة الماليزية ونقلها إلى مصاف الدول المتقدمة»، مضيفاً أنّ «ربع الميزانية كان مخصصاً للتربية والتعليم»).

فأنْ تزداد علماً -أيها الشباب- علماً باختصاصك الذي أنت فيه؛ أكاديمياً كان أو مهنياً حرفياً، وعلماً بتجارب الأمم والبلدان في سقوطها ونهضاتها، وأن تزداد خُلُقاً وتربية هو خطوة مهمة في تعافي البلد ونهضتها.

ثالثاً: **اعمل صالحاً:**

يقول الدارسون: إنّ فهمَ حقيقةِ الوجود والكون والإنسان والحياة؛ هو المحدّد الأكبر لمصير الأمم والشعوب من حيث التخلف والتقدم، والبداوة والتحضر.

اعلموا أيها الإخوة أنّ التصورَ الإسلامي لهذه الأربعة كفيلٌ بأنْ يحفّزنا جميعاً على العمل مهما كانت الظروف.

فأنتم أيها الإخوة مستخلفون على هذه الأرض: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]، مأمورون بعمارتها: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [هود: 61]، مدعوون لنشر الإيمان والبر بين أهلها: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: 67]، ومطلوبٌ إليكم أن تسعَوا للعمل الأحسن: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: 2]، ثم الخلق كلهم مجزيّون يوم القيامة، كلٌّ منهم بما اعتقد وعمل: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: 31].

أخرج البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**على كل مسلم صبدقة**»، قيل: أرأيت إن لم يجد؟ قال: «**يعتمل بيديه، فينفع نفسه ويتصدق**» قال: أرأيتَ إن لم يستطع؟ قال: «**يعين ذا الحاجة الملهوف**»، قال: قيل له: أرأيتَ إن لم يستطع؟ قال: «**يأمر بالمعروف، أو الخير**»، قال: أرأيتَ إن لم يفعل؟ قال: «**يمسك عن الشر، فإنها صدقة**».

فالتصور الإسلامي يدعونا للعمل والسعي والبذل في الأوقات كلها والظروف جميعاً، ومن أراد الدرجات العلا عند الله فليعملْ صالحاً، ومن أراد أن تتعافى بلده وتنهض فليعمل صالحاً.

رابعاً: **أدم الضراعة والدعاء:**

قال تعالى عن سيّدنا يونس لَمَّا كان في بطن الحوت: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: 87، 88]، قال ابن كثير في تفسيره: (﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: إذا كانوا في الشَّدائد ودَعَونا منيبين إلينا، ولا سيما إذا دعَوا بهذا الدُّعاء في حال البلاء، فقد جاء التَّرغيب في الدُّعاء به عن سيّد الأنبياء).

وقال سيّدنا عبد الله بن مسعود: (ما سمعنا منشِداً يَنشُد حقاً له أشدُّ مناشدةً من محمَّد صلى الله عليه وسلم يوم بدر؛ جعل يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَنْشُدُكَ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنَّكَ إِنْ تُهْلِكَ هَذِهِ العِصَابَةَ لَا تُعْبَدُ...» [مسند أحمد].

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ، اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبَدْ بَعْدَ الْيَوْمِ» فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ بِيَدِهِ فَقَالَ: حَسْبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَدْ أَلْحَحْتَ عَلَى رَبِّكَ، فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ * بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُم والساعَةُ أَدْهَى وأَمَرُّ﴾ [القمر:45-46]» [البخاري].

خرج التَّابعيُّ الجليل العابد محمَّدُ بن واسع في جيش قتيبة بن مسلم الباهلي، فلمَّا تراءى الجمعان رأى المسلمون من كثرةِ عددِ عدوهم ووفرة عدته وعتاده ما ملأ نفوسهم خشية منه وهيبة له، التفَتَ قتيبة فلم يرَ ابنَ واسع، فأرسل بعضَ مَن عنده يطلبونه، فلمَّا عادوا إليه قالوا: وجدناه يَشخصُ ببصره إلى السَّماء، ويحرّك أصبعه ويدعو، أفندعوه لك؟ قال: لا، فوالله لأصبع محمَّد بن واسع في الجيش أحب إليّ من ألف شاب طَرِير (ذي شارب)، وسيف شهير، فلمَّا أتاه محمَّد بن واسع قال قتيبة: أين كنت؟ فقال: كنت أهزُّ لك أبواب السَّماء! والتَحَمَ الصَّفان، والتقى الجمعان ومنح الله ظهور أعداء المسلمين للمسلمين.

فالضَّراعة بين يدي الله وكثرة الدعاء سبب في تعافي البلد ونهوضه.

وبعد أيها الشباب:

هذا جوابي لكم عن سؤال ماذا أفعل ليتعافى بلدي وينهض؟: لا تيأس، واعلم، واعمل صالحاً، وأدم الضراعة والدعاء.

اللهم بارك لنا في شامنا، وأعنا على سوق الخير للبلاد والعباد.

ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

والحمد لله رب العالمين